

# جريدة روز اليوسف

1 يوليو 2008

## رحيل صاحب الخطى بعد 40 عاماً من العطاء

رعوف عباس..... الفقر واحتكاكه بالعمال كانا سبباً في اختياره منهج التاريخ الإجتماعى

أعد التحقيق: إيهاب كامل - مروة فتحى - ماريان فهم

- كان محاضراً بارعاً وأستاذاً يستطيع التواصل مع تلاميذه ولديه القدرة على توصيل الأفكار
- وكان من الرجال الذين يعشقون عملهم وهو الأمر الذى جعله يسبق العديد ممن جاءوا قبله
- قيمة رعوف عباس لم تكن فى المنصب الذى شغله كرئيس للجمعية المصرية للدراسات التاريخية وإنما قيمته فى عمله والرسائل التى أشرف عليها وحلقات البحث والكتب التى ألفها
- لم يستطيع رعوف عباس تحقيق أمله وإصدار موسوعة عن تاريخ مصر فى القرن 19

مشى الدكتور رعوف عباس آخر خطاه خارج عالمنا بعد رحلة طويلة إستمرت 69 عاماً عانى خلالها الكثير، فلم يكن مرضه الأخير هو المعاناة الوحيدة التى قابلها الراحل فى حياته فقد بدأت منذ ولادته عام 1939 بمدينة بورسعيد، التى نزع إليها والده وأسرته الفقيرة من قريته "جرجا" والذى كان عاملاً بسيطاً فى السكة الحديد حاله كحال جده لأبيه الذى كان عاملاً أيضاً فى السكة الحديد، أما والدته فقد كانت بورسعيدية، فلم يكن الفقر الذى عانى منه معوقاً بل دافعاً للأمام فاستطاع أن يكمل تعليمه حتى أنهى التعليم العالى وعمل فى بعض المهن البسيطة حتى تم تعيينه فى شركة قطاع عام تنتج حامض الكبريتيك وسماد السوبر فوسفات بكفر الزيات، وتلك الفترة كان لها شديد الأثر فى تكوينه وفى منهجه العلمى فى البحث فالاقتراب من العمال جعله ينظر للتاريخ من خلال رؤية إجتماعية مغايرة للرؤية السياسية التى كانت سائدة فى تلك الفترة حتى أنه جعل من حياة العمال موضوعاً لرسالة الماجستير عن الحركة العمالية وتاريخ الحركة النقابية فى مصر ثم الدكتوراه.

كان للراحل الكثير من المواقف والآراء الجريئة منها ما جاء فى كتابه "مشيناها خطى" والذى تحدث فيه عن الجامعة المصرية والتراجع الذى مرت به كذلك كان له موقف مما تقوم به الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فقد كان يرى أنها تقوم بفتح أبواب خلفية للتطبيع مع إسرائيل، من خلال قيامها بالإستعانة بعدد من الأكاديميين الإسرائيليين للدراسة بها، وأن ذلك هو محاولة من الإدارة الأمريكية للترويج لسياستها فى أوساط طلبة الجامعة، وانتقد تعاملنا مع الجامعة فى الوقت الذى تقوم فيه جامعات بريطانية بمقاطعة الجامعات الإسرائيلية.

كما كان يرى أن ظاهرة الإسلام السياسى انتشرت نتيجة ضعف دور الدولة فى المجتمع، موضحاً أن هذه الجماعات قد ركزت خلال فترة السبعينيات على كليات التربية، فخرج المدرسون متأثرين بالفكر الوهابى المنغلق، فانعكس ذلك على التلاميذ.

ثم كانت معركة من أجل الحفاظ على كيان الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التى تعرضت لضائقة مالية كادت أن تقضى عليها لولا جهوده، وأخيراً أتهام المؤرخ الأمريكى اليهودى جوئيل بينين له بمعاداة السامية بعد أن رفض عباس الإشراف على ترجمة كتاب بينين "شتات اليهود المصريين" واعتبره لا يتسم بالموضوعية فى رؤيته لموقف مصر الناصرية من اليهود المصريين وهو الأمر الذى جعل وزارة الثقافة تتوقف عن ترجمة الكتاب الذى صدر منذ أشهر عن إحدى دور النشر المصرية الكبرى.

عمل عباس معيداً بكلية الآداب جامعة القاهرة ثم مدرساً فأستاذاً مساعداً ثم أستاذاً للتاريخ الحديث، رئيساً لقسم التاريخ الحديث، ووكيل كلية الآداب للدراسات العليا.

صدر له حوالي عشرين كتاباً منها "الحركة العمالية في مصر" أطروحته للماجستير و"النظام الإجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الكبيرة" أطروحة الدكتوراه، "ومذكرات محمد فريد"، و"الحركة العمالية المصرية فى ضوء الوثائق البريطانية..1924 - 1937"، و"جماعة النهضة القومية"، و"السياسة الأمريكية والعرب" و"جامعة القاهرة...ماضيها وحاضرها".

كما أشرف وشارك فى تحرير عدد من الكتب منها "مصر للمصريين: مائة عام على الثورة العربية"، عام 1981، و"مصر وعالم البحر المتوسط" عام 1986، و"العرب فى أفريقيا: الجذور التاريخية والواقع المعاصر" عام 1989، "وأربعون عاماً على ثورة يوليو: دراسة تاريخية" عام 1992، و"العلاقات المصرية - البريطانية (1951 - 1954)" عام 1995، و"الأحزاب المصرية (1922 - 1953)" عام 1995، و"حرب السويس بعد أربعين عاماً"، القاهرة عام 1997.

له العديد من الترجمات من الإنجليزية إلى العربية منها "يوميات هيروشيما" عام 1977، ومورس دوب "دراسات فى تطور الرأسمالية" عام 1978، وشارل عيساوى "الهلال الخصيب: تاريخ اقتصادى وثائقى" عام 1989، وبيتر جران "الجذور الإسلامية للرأسمالية" عام 1992، وبيتر جران "ما بعد المركزية الأوروبية: دراسة فى تاريخ العالم" عام 1998.

حصل الراحل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من رئاسة الجمهورية عام 1983، وجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الإجتماعية من المجلس الأعلى للثقافة عام 1999.

اختارت روز اليوسف أن تكون مشاركتها فى تأبين الراحل عبارة عن شهادات قدمها مجموعة من أصدقائه وتلاميذه.

الدكتور قاسم عبده قاسم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - يقول إن رءوف عباس كان صديقاً عزيزاً على المستوى الشخصى، أما على المستوى العلمى فهو من كبار المؤرخين العرب وقيمه تكمن فى مؤلفاته وتلامذته، فقد كان منارة فى التاريخ العثمانى حيث مثل هو ومجموعة من تلامذته مدرسة جديدة فى مجال الدراسات العثمانية التاريخية تقوم على فرز وتفنيده كلام المستشرقين وهى المدرسة التى أكدت على أن الدولة العثمانية لم تكن بالصورة التى قدمها لنا هؤلاء المؤرخون بأنها كانت فترة ظلامية عاشتها مصر والعالم العربى، بل إنها وقفت فى وجه الأطماع الاستعمارية لأكثر من 600 سنة وقد تصدر هذا الإتجاه الراحل والدكتورة نيللى حنا، وآخر ما قدموه معا مؤتمراً بالمجلس الأعلى للثقافة عن الحكم العثمانى حاولوا من خلاله تصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة.

وأضاف: تميز رءوف عباس بالجدية الشديدة وكان من الرجال الذين يعشقون عملهم وهو الأمر الذى جعله يسبق العديد ممن جاءوا قبله، إضافة إلى أنه محب لتلاميذه فقد كان يرعاهم ويساعدهم قدر الإمكان فهو قام بتربية جيل كامل حمل رسالته من بعده ولهم إسهامات كثيرة تواصل ما بدأه.

الدكتور أحمد زكريا الشلق أشار إلى أن الراحل كان مؤرخاً بمعنى الكلمة، وأن له العديد من المؤلفات المنصبة على حركة المجتمع المصرى وتاريخه السياسى وكل مؤلفاً لا يقل أهمية عن الآخر، وقال: إن قيمة رءوف عباس لم تكن فى المنصب الذى شغله كرئيس للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وإنما قيمته فى عمله والرسائل التى أشرف عليها وحلقات البحث والكتب التى ألفها. فهو يعد من أهم رواد مدرسة التاريخ الإجتماعى لمصر الحديثة، فقد قدم دراسات رائدة عن الحركة العمالية فى مصر، وعن النظام الإجتماعى فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة، وتكمن أهمية هذه الدراسات ليس فقط فى كونها فتحت هذا المجال أمام الباحثين وأعنى مجال التاريخ الإجتماعى، إنما عالجت قضايا التاريخ بشكل عام برؤية إجتماعية واعية، فحتى الموضوعات السياسية التى عالجها فيما بعد بخلاف الموضوعية المشار إليها قدم فيها تحليلاً إجتماعياً على درجة كبيرة من الأهمية، ولا أبالغ إن قلت أنه صاحب مدرسة تجديد الفكر التاريخى فى مصر فى هذا المجال بالتحديد.

وأضاف: من المهم أن نشير إلى أنه قدم دراسات تالية عن الحركة العمالية أيضاً وعن الفلاح والقرية فى مصر الحديثة إضافة إلى إلتزامه بصراحة المنهج العلمى الذى ميز دراساته الأكاديمية والتى تعد بحق نماذج يحتذى بها فى البحث التاريخى العلمى، كذلك لا بد أيضاً من الإشارة إلى أنه يعد رائداً من رواد الترجمة العلمية فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر، فقد عكف على ترجمة دراسات مهمة فى تاريخ مصر والشرق العربى وهذه الترجمات على درجة عالية من الأهمية للباحثين والمتقنين جميعاً، فقد كان رءوف عباس يمتلك مقدرة خاصة على الغوص داخل النصوص الإنجليزية وتقديمها للقارئ العربى بأسلوب عربى مبين وتسجل ترجماته هذه جهداً عظيماً يفوق أحيانا الجهد الذى يبذله الآخرون فى التأليف، فلا أعرف أستاذاً فى تاريخ مصر الحديث استطاع أن يقدم هذا الجهد الأكاديمى الرصين سوى رءوف عباس،

صحيح أن هناك من سبقه وقدم بعض الأعمال المترجمة لكن كثرة الأعمال التي قدمها وأهميتها جعلته بحق من طراز هؤلاء الأساتذة الأكاديميين الكبار الذين أثروا المكتبة العربية بهذه الترجمات.

وإنتهى الشُّلق إلى أن الراحل كان من أبرز أبناء الجيل الثالث في الجامعة المصرية في مجال التاريخ الإجتماعي.

الدكتور عاصم الدسوقي أشار إلى أنه كان ينتمى لنفس الدفعة التي ينتمى إليها في كلية الآداب جامعة عين شمس وأنهما تخرجا معاً عام 1961، وقال: أخذ الراحل طريقه للدراسات العليا وأعد رسالته في الماجستير عن الحركة العمالية في مصر وكان رائداً في التاريخ الإجتماعي في مصر وبعد أن أنهى الماجستير عين في جامعة القاهرة وأعد رسالته في الدكتوراه عن الملكيات الزراعية الكبيرة في مصر في القرن 19.

ولفت الدسوقي إلى أن ريادة عباس في التاريخ الإجتماعي المصري جاءت لأن الجامعة المصرية في ذلك الوقت لم تكن تقبل قبل ذلك تسجيل الرسائل العلمية في هذا الموضوع، وأن ذلك قاده للشهرة في الوسط الأكاديمي داخل وخارج مصر. بالإضافة إلى أنه كان يعهد في دراسة موضوعات معينة في التاريخ الإجتماعي وكون مدرسة من مجموعة من الطلاب ونقل خبرته لهم.

وقال: إنتدب مديراً لوحدة التاريخ في الأهرام، ثم مشرفاً لوحدة التاريخ بالجمهورية، وبعدها أشرف على مركز الوثائق بدار الكتب فضلاً عن أنه سافر لليابان واستكمل بعض الدراسات المقارنة بين مصر واليابان فيما يتعلق بالأوضاع الإجتماعية، ثم سافر إلى ألمانيا والولايات المتحدة وفرنسا وقدم مؤلفات هائلة للمكتبة التاريخية.

وأضاف: لقد كان رجل المواقف، والقريب منه يعلم فضله في الوقوف بجانب الحق ورفع الظلم عن الناس ويستخدم علاقته الطيبة لتذليل الصعاب أمام الباحثين الشباب وصغار أعضاء هيئة التدريس ليضعوا قدمهم على الطريق الصحيح، كما أنه كان يجمع بين نقيضين العلم والأخلاق وقادة ذلك للإصطدام مع الكثير من الناس الذين لا أخلاق لهم خاصة، وآخر أعماله هي مذكراته "مشيناها خطى" التي صدرت عام 2004 قال فيها كلمة حق عن التعليم الجامعي والعلاقات الإجتماعية، وهي صور يعانى منها كثير من أعضاء هيئة التدريس فكان لديه من الشجاعة ما جعله يقول كلمة حق في وسط مناخ لا يقبل فيه أن يقال للأعمى أنه أعمى، فكان يقول ما يفعله وهذا هو الاتساق بين الفعل والقول ونتيجة ذلك رفعت عليه قضايا عديدة لكن القضاء أنصفه لأنه اعتبره حرية رأى وظل يعانى من هذا الكتاب لفترة.

الدكتور عبد الوهاب بكر أستاذ التاريخ المعاصر والحديث بكلية الآداب جامعة الزقازيق قال: إن رءوف عباس علامة من العلامات البارزة في مجال التاريخ المصري الحديث فقد اتجه إلى مجالات لم يسبقه إليها أحد، وتتركز أغلبها على العمال والحركة الإجتماعية في مصر وعندما كان يعالج هذه القضايا كان يعالجها من منطلق اهتمامه بأحوال الشعب المصري، واتسمت معالجته بالعمق والوضوح والصرامة اللازمة ولعل ذلك العمل الأخير الذي صدر له "مشيناها خطى" وهو سيرة ذاتية له أثبت فيها أنه كان نموذجاً جيداً للخلق والشجاعة والمروءة والصرامة والصبر ومن هنا فقد ترك رءوف عباس مكاناً لا يمكن لأحد أن يملأه من بعده لأنه قيمة علمية وأدبية مهمة وكان له مكانة بين المؤرخين.

وأضاف: لقد تعاملت معه عندما كنا معا في إنجلترا عام 1982 حيث كنت أعمل أستاذاً زائراً في جامعة اكسفورد وكان هو ممثلاً للأهرام في جمع مادة علمية بدار "الوثائق البريطانية"، وقضينا معاً فترة تقرب من شهرين نلتقى يومياً في قاعات البحث والغذاء واكتشفت أنني أمام معدن نادر من البشر يختلف عن ما صادفته مع الآخرين.

الدكتورة لطيفة سالم أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة بنها، قالت أعتبر الدكتور رءوف من كبار مؤرخي مصر في التاريخ الحديث، لما له من بصمات في تاريخ مصر بصفة عامة وخاصة التاريخ الإجتماعي، فيكاد يكون أول من كتب عن نقابات العمال وكبار ملاك الأراضي، وتناول الكثير من التيارات الفكرية الحديثة في التاريخ المصري، بالإضافة إلى المجهود الكبير الذي بذله في إعادة بناء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي كان يشعر وكأنها منزله الخاص، أما عن تعاملاته الشخصية مع تلاميذه فكان يمد يد المساعدة لمن يحتاج إليها، وعلاقتي معه تتلخص في السن المتقاربة بيننا فكان يكبرني بحوالي خمس سنوات، وأذكر إنه في نفس الأسبوع الذي حصلت فيه على درجة الأستاذية رشحنى لمناقشة إحدى رسائل الماجستير وكان بداية الطريق بالنسبة لي، وتمنيت سالم لو أن المؤرخين الموجودين على الساحة يصلون إلى "ربع" ما وصل إليه رءوف عباس .

الدكتورة نيللى حنا أستاذة التاريخ بالجامعة الأمريكية أشارت إلى أن عباس من الجيل الأول الذي اهتم بالتاريخ الإجتماعي لمصر، بعدما كان التركيز من قبله على التاريخ السياسي، وقالت: في السنوات الأخيرة لعب دوراً مهماً في تطوير الجمعية المصرية والتي تعتبر من أهم الجمعيات العلمية في مصر، من خلال تشجيعه لجيل من الشباب كي يطور نفسه، وذلك عن طريق عدد من المقابلات الشهرية التي كان يعقدها معهم بمقر الجمعية.

وأضافت: بدأت علاقتي بالدكتور رءوف عباس عام 1992 وشعرت كم هو معطاء مع طلابه ومساعداً لهم بشرط أن يكون الطالب جاداً ولديه رغبة في التعلم. وإعتبرت حنا أن رحيل عباس خسارة ليس لها حدود.

الدكتور محمد عفيفى أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة والذي يعد أحد تلامذة الراحل، فقد درس له في مرحلة الليسانس وأشرف على رسالة الماجستير والدكتوراه الخاصة به وهو من أصدر قراراً بتعيينه معيداً في كلية الآداب جامعة القاهرة – عندما كان رئيساً للقسم، فقال إنه من جيل الستينيات ولعب دوراً مهماً في تغيير الفكر المصرى والمدرسة التاريخية المصرية، بل أنه أبرز أهمية التفسير الإجماعى والاقتصادى لتاريخ مصر ولعب دوراً في تخريج أجيال من المؤرخين المصريين في مجالات شتى، فقد كان يرى أنه لا يوجد دارس للتاريخ إلا ودخل دار الوثائق القومية واطلع على الوثائق الحقيقية، فقد كانت هذه هي النصيحة التي طالما نصح بها طلابه.

وأضاف: لقد كان الراحل من الذين لديهم مشروع قومى لدراسة تاريخ مصر الاقتصادية والإجماعى في العصر الحديث، وأمله الذي لم يتحقق هو أن يصدر موسوعة عن تاريخ مصر في القرن 19 الذي يرى أنه عصر التحولات الكثيرة في التاريخ المصرى ولفت عفيفى إلى أن رءوف عباس كان محاضراً بارعاً، وأستاذاً يستطيع التواصل مع تلاميذه ولديه قدرة على توصيل الأفكار، عن طريق مزيج بين الود والحزم وأنهما شيان قلما ما يجتمعان في إنسان واحد، وقال: لقد كان دائم الأهتمام بالشأن العام، ولا يحصر دائرة التاريخ داخل الجامعة بل يربطه بالشأن العام من محاضرات وندوات.

الأستاذ طاهر حسين مدير الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، أشار إلى أن الراحل قدم العديد من الكتب التي صدر بعضها عن المجلس الأعلى للثقافة والجمعية المصرية للدراسات، فضلاً عن عشرات المقالات العربية في الدوريات العربية والعالمية واتفق مع من سبقه على أن أهمية رءوف عباس تكمن في أنه أسس مدرسة في التاريخ تخرج فيها العديد من تلاميذه في مصر والعالم العربى ووجههم إلى دراسة الوثائق باعتبارها المورد الأهم بين موارد التاريخ وعنى عناية خاصة بالحقبة العثمانية التي لم تكن ضمن اهتمامات المؤرخين في تلك الفترة.

ولفت حسين إلى بعض الصفات التي ميزت عباس وهي قوله الحق في أصعب الظروف، ووطنيته الصادقة، وعداؤه للصهيونية والعولمة الأمريكية، إنه لم يسع يوماً إلى المناصب بل هي التي سعت إليه وأنه أضاف إليها ولم تضاف إليه، وأنه من أشهر أقواله "لا يصح إلا الصحيح"، ومثله الأعلى كان أحمد عزت عبد الكريم وأحمد عبد الرحيم مصطفى.

الدكتور ناصر إبراهيم –أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد بجامعة القاهرة وأحد تلامذة الراحل– أكد أن رءوف عباس يعد من أبرز المؤرخين في الساحة المصرية والعربية، وكان له مشروع علمى كبير حاول من خلاله النهوض بالكتابة التاريخية في مصر والعالم العربى، وتبلور هذا المشروع في إتجاهه إلى دراسة التاريخ الإجماعى لمصر الحديثة والمعاصرة وإستطاع من خلال سلسلة من الأعمال والدراسات والمؤلفات زادت على 50 مؤلفاً إضافة إلى عدد كبير من الترجمات تجاوز الـ15 إنتاجاً مترجماً؛ هذا الإنتاج الكبير والتميز كمأ وكيفاً، استطاع من خلاله أن يطور شكل الكتابة التاريخية في مصر الحديثة والمعاصرة بعدما كانت تدور في فلك التاريخ السياسى والمؤسسى أصبح تاريخ الفرد والمجتمع والناس في حياتهم اليومية.

ولفت إلى أن الراحل كانت لديه منطلقات فكرية في دراساته التاريخية، وأولها أنه كان ضد قولبة التاريخ في الأطر النظرية الصارمة و ضد أن تخضع الكتابة التاريخية للتوجهات الأيديولوجية ولكنه في نفس الوقت ليس ضد النظرية فكان يوجه تلاميذه تجاه ضرورة الإعتقاد على النظرية في التفسير وليس استخدام نظرية واحدة في الدراسات التاريخية والفرق بينهما كبير لأن استخدام نظرية واحدة يعنى إختيار الوقائع التاريخية التي تناسب النظرية وتجاهل الوقائع الأخرى في حين أنه كان يستخدم من النظريات ما كان يُخدم على دراساته التاريخية وكان يؤكد على ضرورة الاستفادة من النظريات في التاريخ.

أما المنطلق الثانى فيقول ناصر إنه لا يحب أن يفسر التاريخ من خلال عمل واحد أو المؤشر الخارجى، بل يرى أن التاريخ تحركه عوامل معقدة في الداخل والخارج وليس في الخارج فقط بل إن العامل المحلى له القوة الكامنة وراء حركة التاريخ، ويعتمد المنطلق الثالث على أن المؤرخ لابد أن يضع في اعتباره عند دراسة المجتمع الموروث الثقافى والإجماعى.

وعلى الصعيد الإنسانى، يشير ناصر إلى أنه كان دائماً ما يقول لتلامذته إن العلم لا ينفصل عن الأخلاق، فالأخلاق تثبط العلم، والعالم الذى تنعدم فيه المروءة والأخلاق لن يستطيع أن يمد يده للأخرين إلا من خلال مصالحه الخاصة وهو ما كان يرفضه، فكان مهموماً بالأخرين وبالوطن ومن هنا كان إنتفاف الناس حوله على إختلاف أعمارهم فهذا الرجل نموذج يجسد العالم النبيل وسيظل في ذاكرة هذا الجيل والأجيال القادمة تسمع عنه وتقرأ أعماله.

الدكتور أحمد الشربيني – أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة القاهرة – أكد أن رءوف عباس يعد من أهم المؤرخين المصريين الذين أسهموا في كتابة تاريخ مصر الإجتماعى. فقام بدراسة الحركة العمالية في ضوء الوثائق البريطانية، وأجرى دراسة أخرى عن حزب الفلاح الإشتراكي إضافة إلى دراسات أخرى متعددة تتناول جوانب مختلفة من تاريخ مصر الإجتماعى. كذلك اهتم بصياغة مشروع لدراسة موضوعات في تاريخ مصر من خلال رسائل الماجستير التى أشرف عليها، وأدى ذلك إلى مناقشة قضايا شائكة فى المجتمع المصرى وقتذاك أبرزها: تاريخ الزراعة المصرية – التجارة المصرية – نظام الاحتكار وأثره على الاقتصاد المصرى – الموظفون الأجانب والمصريين فى القرن الـ 19 والـ 20.

تتسم كتاباته بالرصانة والموضوعية والدقة الشديدة لأنها مبنية على منهج علمى سليم، كما تقوم كتاباته على المنهج التحليلى وتتعلق فى دراسة الموضوع من إشكاليات وفرضيات وهذا جعل كتاباته جديدة وهادفة ولها طابع خاص كما تناول موضوعات ذات حيوية وحساسية.